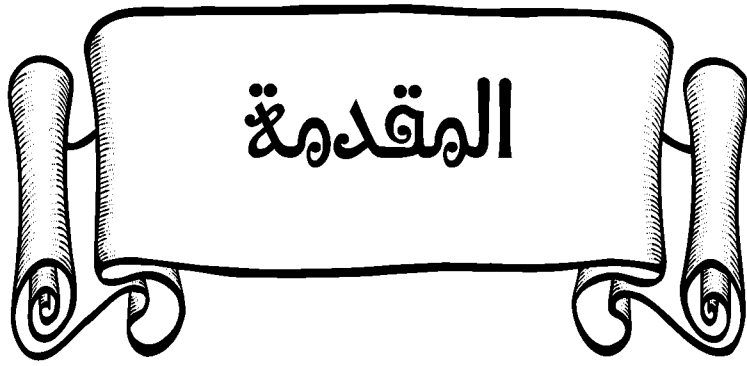




إن الحديث عن الحركة الاجتماعية والسياسية والثقافية للمجتمع التونسي في القرن التاسع عشر يعكس تفاعلات أطراف متنوعة وأدوار مختلفة اضطلعت بها القبيلة - المدنية - الزاوية والسلطة. وهذه الرموز المختلفة شكلت جملة من العلاقات المحورية والفرعية، تتفاوت مؤثراتها حسب الأبعاد الرمزية والمادية. فالعرف والشرع والقانون دلالات مختلفة لمرجعية اجتماعية متجانسة ومتكاملة. كذلك الحرفة والأرض والدولاب^(١) تشكل بدورها محددات السيادة والولاء للعشيرة والعائلة والوطن.

وعلى هذا الأساس لا يمكن دراسة هذه الخصوصية الاجتماعية حسب مقولات المنهج الاجتماعي (والسوسيولوجي) الأوروبي^(٢) وتقييم مظاهر الحركة والتفاعل حسب معايير التقدم والتخلف. كذلك لا يمكن إخضاع المنظومة الاجتماعية في القرن التاسع عشر إلى التعليلات الخلدونية في القرن الرابع عشر. فالاجتماع البشري ليس سيرورة سرمدية ثابتة بل هو متحول ومتطور. وعملنا في هذا البحث يتنزل في إطار رصد مختلف "ديناميات" أي تفاعلات المجتمع التونسي في القرن التاسع عشر بمختلف شرائحه البدوية والمدينية لتأكيد ملامح الحراك في مختلف مظاهر الحياة الفردية والجماعية. ومعلوم أن نفى الحراك الاجتماعي والسياسي عن المجتمع التونسي هو في

1 - الإعانة على الحرث والبذر تدعيما للحملة الاجتماعية داخل العروش.

٢ - بعض المستشرقين لا يتكلمون عن الأمم والشعوب الإسلامية بل يستعيضون عن ذلك بالحديث عن العشائر، ولا عن القيم الأخلاقية الإسلامية ولكن عن العادات، ولا عن الإيمان الإسلامي وإنما عن المعتقدات، ولا عن الفن الإسلامي وإنما عن الفلكلور. انظر عبد الوهاب بوحدية: لأفهم فصول عن المجتمع والدين ص ١٠٩.

الواقع نفى لحضور كيان مجتمع ودولة. وإلغاء لأى شكل من التواصل بينهما. فتصبح فرضية الاحتلال أو الاستعمار عاملا أساسيا من عوامل التغيير للمجتمعات التقليدية. وكأن قدر هذه المجتمعات فى التطور لا يكون إلا من خارجها. وهكذا بدعوى الجمود والسكون والتخلف يتم القضاء على حركية المجتمعات التقليدية وتحطيم آلياتها الداخلية.

ولتجاوز منطلقات هذه الفرضيات وتعليقاتها المختلفة، وتأكيدا لموضوعية التحليل والبحث أطرح الأسئلة الإشكالية التالية:

- هل البداوة فى المجتمع القبلى التونسى كانت تعبر عن الهمجية والتسيب شأنها فى ذلك شأن التوحش لدى القبائل "الإفريقية" و"الأسترالية"؟

إذا كانت البداوة فى المجتمع الريفى التونسى انكاسا للمفهوم الشائع والمطلق للمصطلح عندئذ لا جدوى من الحديث عن الخصوصية التاريخية والثقافية للمجتمع. فيصبح تاريخ البلاد كله هيجانا قبليا مقننا. ويبقى الإنسان فى هذا المجال قبليا بطبعه. وعلى هذا الأساس تفقد الصراعات الاجتماعية مضمونها، ويصبح المنحى النزاعى العنيف بين العشائر والقبائل أو بين المركز والأطراف هو قاعدة الانتظام الداخلى بين مختلف الوحدات الاجتماعية.

وإذا كانت البداوة مرحلة سابقة على الدولة، فمباذا نفسر سيرورة القبيلة "الخلدونية" نحو الملك؟ وما هى أبعاد الانتفاضة والثورة فى تاريخ البلاد؟ لا سيما انتفاضة القبائل التونسية سنة ١٨٦٤ والتى كانت بحق تجسيدا لواقع القبيلة التونسية وخصوصيتها الثقافية والحضارية. فقد نظر إليها "المخزن على

أنها فساد وفوضى ووضعها القائمون بأعبائها تحت عنوان النهى عن المنكر واعتبرها الملاحظون الفرنسيون كبرهان على إفلاس الحركة الإصلاحية^(١).

فما حقيقة هذه الثورة؟؟

* ما هو موقع التمايز الاجتماعى والاقتصادى والسياسى الذى سلكته الدولة "المخزنية"^(٢) إزاء المجتمع المحلى؟ أليس هذا الخلف الداخلى هو الذى عمق من ثنائية العامة/ الخاصة أو الريف/ المدن؟ وقوى من الفصام المعلن بين الدولة والمجتمع؟

ألسنا بصدد مجتمع مجزأ لا يتبنى سوى "إيديولوجيا انقسامية"^(٣) لا تعبر إلا عن خيارات وبدائل تسعى إليها الأطراف المتنازعة؟

* إذا كانت الخصوصيات التاريخية للمجتمع التونسى فى القرن التاسع عشر تجسيدا للركود الاجتماعى واللاحركية، فإن الحداثة تصبح لحظة

١ - توفيق البشروش: ربيع العربان أضواء على أسباب ثورة على بن غدام سنة ١٩٦٤ بيت الحكمة - قرطاج - ١٩٩١ ص ١٦.

٢ - بلاد المخزن هى التى تقبل فيها الرعايا تقويض حكم وسلطة إدارتهم العليا للسلطان وهى خلاف لبلاد السية التى تشبث بسلطة إدارتها الذاتية ولا تعترف بسلطة المركز. الدولة المخزنية هى التى تنصب المخزن كمرجع ضرورى لازم لولاء الناس أو عدائهم.
انظر - د. مصطفى الكثيرى: الخصوصية التاريخية والحضارية لبلدان المغرب العربى ومدى انعكاساتها على التنمية الإدارية. المنظمة العربية للعلوم الإدارية. الأردن ١٨٦٩ ص ٤٢.

٣ - يقول ابن أبى الضياف: "وانقسمت الإيالة فى المعنى إلى إيلتين تستبيح إحداها الأخرى. ونقل عن بعض الهمامة أن ذلك بإذن من الباي فى السر وإنما بتذكار الحسائف القديمة حل عقدة القوم التى أحكمت ربطها يد الطبيعة. الإتحاف ٥ / ٢١١.

هيمنة وتفوق من خصوصيات الآخر "الأوروبي" مجتمع الحركية
التضامن العضوى^(١) فهل أن التقليدى والتراث المحلى لا يتضامن
من الحركية والنشاط ما تتضمنه عملية التقدم؟

وإلى أى حد ترادفت إصلاحيات البايات فى القرن التاسع عشر من
حقيقة التخلف الاجتماعى والاقتصادى؟ وما هى نتائج سياسية التحديث على
المجتمع والدولة؟

١ - إميل دور كايم هو أول من استعمل مفهوم الانقسامية لدراسة المجتمعات وتطورها.
وتتمحور أطروحة حول فكرة أساسية مفادها أن المجتمعات تنتقل تدريجيا عبر التاريخ من
أشكال التضامن الآلى إلى أشكال التضامن العضوى. أى من تضامن يؤسسه التشابه بين
العناصر المكونة للمجتمع إلى تضامن يفرضه الاختلاف نتيجة تقسيم العمل. إن أشكال
التضامن العضوى هى التى تسود أوروبا المعاصرة. أما مجتمعات التضامن الآلى فإن
نموذجها العشائر البدائية الذين تجمعهم وحدة الدم المشترك وغياب أى رابطة سياسية.

انظر : Emile Durkeim: de la division du travail social (1893) Paris P. U. F. 1973. P. 150

بالنسبة إلى المخطط التحليلي للرسالة:

- قسمت البحث إلى مدخل تمهيدى (التوطئة والمقدمة العامة) وأربعة أبواب، وكل باب يحتوى على فصول. كما يتفرع الفصل إلى محاور وقد حرصت على تنظيم الأبواب وفق منهج تدريجى متكامل ومترابط.

- اعتمدت فى هذا البحث طريقة المنهج الاستقرائى. حيث ضمنت الباب الأول نموذجاً انطلقت من مختلف ملامحاته لتحليل المباحث الأخرى. ومحتوى هذا النموذج هو "ثورة العربان" سنة ١٨٦٤ واختيارى لهذا الحدث الاجتماعى والسياسى تبرره ندرة المباحث المهمة به من جهة وأهمية الصراعات الاجتماعية والسياسية فى الكشف عن الحقائق التاريخية من جهة أخرى لا سيما وقد شكل الحدث مركزاً استقطاب الأطراف الداخلية والخارجية. بالإضافة إلى ذلك "ولكى نفهم مشكلة الاستمرارية والتغيير فى السلوك الجماعى للجماعات الاجتماعية وفى العلاقات بينها من الضرورى دراسة التوترات والتناقضات التى تعمل على تحريك نظام القيم والبعد الثقافى لكل جماعة"^(١).

1 - عبد القادر الزغل: المدارس الغربية والهياكل الاجتماعية فى الشرق الأوسط. مجلة المستقبل العربى - بيروت عدد ٣٧ مارس ١٩٨٢ ص ٥٠.

الباب الأول: طبيعة حراك المجتمع من خلال النص (نموذج ثورة العربان).

الفصل الأول: أبعاد الثورة والانتفاضة فى تاريخ البلاد.

تعرضت فى هذا الفصل إلى طبيعة الثورة انطلاقاً من عصر الولاية إلى العهد العثمانى وتحديدًا العهد الحسينى مبرزاً الدوافع المختلفة والأهداف التى كانت تقود حركات التمرد آنذاك، وذلك لمعرفة مميزات الحراك الاجتماعى والسياسى فى هذه المراحل التاريخية وكيف علل الكاتب مختلف هذه التوترات وأبعادها.

الفصل الثانى: الخصائص النموذجية لثورة ١٨٦٤ (الثابت والمتحول)

أين تبدو مظاهر الاستمرار وكيف تجلت القطاعات بين السابق واللاحق؟
سأبين فى الفصل أبعاد التمرد الشعبى فى القرن التاسع عشر. هل هى أبعاد مذهبية - دينية أم اجتماعية وسياسية؟
كذلك سأبين طبيعة الحراك فى هذه الثورة - فهل هو حراك أفقى يبحث عن توازنه المفقود داخل النسق الاجتماعى والسياسى؟ أم حراك عمودى تراتبى يريد تغيير المراكز؟

عموماً سأقوم فى هذا البحث برصد التحولات الجديدة الطارئة على الفكر الاجتماعى وذلك من خلال قراءة المضمون "السوسيولوجى" لخطاب الثورة وأهدافها؟

الباب الثانى: مراكز الحركة والاستقطاب فى المجتمع (من خلال تفاعلات النموذج)

- الفصل الأول: البنى السياسية والاجتماعية

- الفصل الثانى: المجتمع المحلى والشرعية السياسية

- الفصل الثالث: الرموز الثقافية والدينية

أقصد بمراكز الحركة والاستقطاب الآليات المحركة والفاعلة التى كانت تستقطب اهتمام مختلف الشرائح الاجتماعية. فثورة العربان كشفت لنا عن أدوار مهمة اضطلعت بها الطريقة والقبيلة والمدينة وبيئت لنا العلاقة الجدلية الهامة التى كانت تربط مختلف البنى السياسية والاجتماعية.

وبعد بيان الخصوصيات التاريخية سأبين المضامين والأدوار والمواقع المختلفة للبنى السياسية والاجتماعية وعلاقاتها بالرموز المذكورة مثل موقع الزاوية فى الحقل الدينى والسياسى وإضفاؤها الشرعية على القبيلة من جهة وتكريسها لمشروعية المخزن من جهة أخرى. ثم ذكر "استراتيجية" الدولة فى تعاملها مع هذه الرموز المختلفة...

الباب الثالث: النص والمجتمع والمقارنات الفكرية

- الفصل الأول: المسألة السياسية ومستوى الوعى عند الكاتب

- الفصل الثانى: الحراك الاجتماعى فى خطاب النص (الثابت

والمتحول)

- الفصل الثالث: النص والمقاربات "السوسيولوجية".

بالنسبة للفصل الأول والثانى سأبين فيهما نقاط الالتقاء والافتراق بين

خطاب الكاتب وبين حقيقة الواقع السائد، بين الفكرية وملابس الظرف. أى متى يكون الخطاب واعيا ومعقولا فى تقييم الأحداث السياسية والاجتماعية؟ ومتى يكون لا واعيا ومتعاليا عن ظرفيته وشروطه التاريخية؟ لا سيما وتقليدية الفكر فى القرن التاسع سرعان ما يلتبس عندها المفهوم بالممارسة لازدواجية الوعى بين المرجع الثقافى والمستجد الحضارى.

إذن أين يلتقى الخطاب بالواقع وكيف تفرق الذات عن الموضوع؟

وما مدى معقولية النص فى تحليل الواقع ونقده؟

عموما هذا المحور يعتبر قراءة فى خطاب النص وتقييم لمواقف الكاتب ورصد لتناقضاته لا سيما ومواقفه لم تكن على وتيرة واحدة حيث تتراوح بين المد والجزر، بين الثبوت والتحول، بين الاتهام والمدافعة. إذن ما هو الثابت والمتحول فى فكر الكاتب؟

أما الفصل الثالث فقد خصصته لرصد ديناميات البنى الاجتماعية والسياسية من خلال الطرح الخلدونى والمقاربات الاجتماعية الحديثة والمعاصرة والتي استأثرت بدراسة التاريخ الاجتماعى والسياسى للبلاد انطلاقا من تصنيفات ومعايير "إيديولوجية" (الانقسامية) استنقصت كثيرا من حركية المجتمع واعتبرته ضمن المجتمعات الساكنة واللامتحركة.

ونقاط الالتقاء فى هذا المحور تتمثل فى المقاربات الموضوعية التى تعبر عن الخصوصية. أما نقاط الافتراق فهى الأطروحات المغالية المسقطة والمعممة التى لا تلتقى مع خصوصية الذات وتاريخها.

ترى إلى أى حد يلتقى خطاب الكاتب مع الطرح الخلدونى ويفترق

عنه؟

وهل تلتقى المقاربات الاجتماعية مع منطق النص وخصوصية المجتمع أم
تفترق عنه؟

الباب الرابع: النص والحادثة والمجتمع

الفصل الأول: هاجس الحادثة وازدواجية الوعي

الفصل الثانى: المفهوم بين التأويل والمماثلة الصعبة

الفصل الثالث: المجتمع وسياسة التحديث

فى هذا المبحث الأخير أردت أن أبين أثر مقولة الحادثة بأبعادها النظرية والعملية على فكر النخبة العاملة فى القرن التاسع عشر وانعكاستها على الوعي التقليدى مبررا أن "التقليد" فى المجتمع التونسى يتضمن من الحركية والنشاط ما تتضمنه عملية التقدم. والمعاصرة لا تقتضى نفى التقليدى لأن فى نفىه نفى لسيرورة الذات ووقوع فى تقليد آخر. إنما تجدد التقليد يكون بإعادة تأويله حسب متطلبات ظروف العصر. كذلك فالتغيير فى تاريخنا وثقافتنا لم يكن أبدا خارج نسقه المعرفى. فسياسة التحديث فى عهد البايات مثلا لم تساهم إلا فى تعميق الهوة بين الفئات الاجتماعية خاصة المدن والأرياف. فإصلاحات البايات لم تترادف مع حقيقة التخلف الاجتماعى والاقتصادى ولم تلتق بواقع العامة بقدر تماثلها مع الخاصة والتقاءها مع "الإيديولوجيا الرأسمالية الأوروبية".